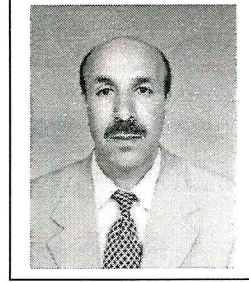


الالتزام في الشعر الجزائري المعاصر (1930 - 1962)

مصباحي الحبيب
أستاذ مساعد مكلف بالدروس
قسم اللغة العربية
معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي / سعيدة



* - معنى الالتزام عبر العصور:

لم تسلم الدراسات النقدية المعاصرة من الحديث عن الظاهرة لما لها من علاقة بالنتائج الأدبية سواء كان شعرا أم نثرا، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأنه لا تخلو أية محاولة نقدية جادة من تخصيص حيز للحديث عن مصطلح الالتزام، وإشكالية الالتزام لم تظهر في الدراسات النقدية القديمة كمصطلح قائم بذاته إلا أن ظهورها وتطورها ارتبط أصلا بالنظريات النقدية الحديثة نتيجة للتطور الفكري، الأدبي والفني الذي حصل نتيجة لتفاعل ثقافي غربي وعربي.

تذكر كتب التاريخ الأصيل اليوناني أن الفنان بوجه عام والشاعر بوجه خاص كان يحتل منزلة عظيمة لدى مجتمعه وعلاقتهما كانت متكاملة حتى أدى هذا في نظر الإغريق إلى اعتبار الفنان كنبى، فهو ليس فقط المشهور بعقيدتهم فحسب، بل أكثر من ذلك حيث تتجسد فيه - حسب زعمهم - كل الآمال والتصورات البسيطة أو المركبة.

أما عند عرب الجاهلية فالأديب أو بالأحرى الشاعر كان يحتل مكانة مرموقة بين قبيلته، إذ كان يمثل وسيلتها الإعلامية آنذاك، ومن واجبها نحوه التكريم المتمثل في إقامة حفل عند ولادة شاعر بينهم اعترافا بمقامه الحالي والمستقبلي، إشادة بالقدرات التي يملكها الشاعر، فهو القادر - حسب اعتقادهم - على رد الاعتبار لهم مدحا أو هجاء، ومن جهة أخرى ابتهاجا بالمقدرة الفنية على التعبير في شكل جمالي جذاب، من خلال تحريك مشاعر الأفراد وإثارة حمية للجماعات في غياب قوانين ونصوص تسيّر هذا المجتمع بطبيعة الحال.

وبعيد مجيء الإسلام أشرقت الرسالة المحمدية على المدينة، وحصل التغيير الجذري في كل معطيات الحياة، حيث منح الشاعر الجاهلي حرية أكبر في رحاب الدين الجديد وبالتالي فقد أثرى خيال

الشاعر بتلك الثروة الروحية الجديدة، وأصبح أكثر تمعنا في هذا الكون المصور في هذا الكتاب وهو القرآن الكريم، و كان للتغيير الذي طال الحياة الاجتماعية، السياسية والاقتصادية أثر إيجابي على الناحية الأدبية خصوصا الشعرية منها، إذ صار الشاعر في تلك الفترة أكثر التزاما بمضامين الحياة الجديدة مقتديا في ذلك بتعاليم معلم البشرية محمد عليه السلام في حث الشعراء الملزمين أمثال حسان بن ثابت رضي الله عنه بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد شعراء الشرك هجاء، دون تجاوز لتعاليم النص الوحي، لذلك ضرب الشاعر الإسلامي أروع مثل في الالتزام إيماننا منه برسالة الشاعر الحياتية في ظل تعاليم الدين الإسلامي خدمة للإسلام ونفعا للدعوة الإسلامية ونصرا للمسلمين، ويأتي في مقامة هؤلاء كل من حسان بن ثابت(ض) وكذا سار الأمر في العهد الراشدي باعتبار أن الخلفاء الراشدين ساروا على نهج المصطفى عليه السلام.

أما في العصر الأموي المتميز بكثرة الصراعات والتطاحن السياسي بين الأحزاب والفرق الدينية، فقد عمد شعراء تلك الفترة إلى مساندة السلطة القوية دفاعا عن مصالحها والخط من قيمة أعدائها ومناقضتها، فصارت أشعارهم بذلك تكتسب صبغة سياسية بحتة ذات بعد أيديولوجي مما جعلها تنحرف عن رسالة الشاعر الاجتماعية المعبرة أصلا عن موقفه الإنساني النبيل، بينما لم يتغير الأمر كثيرا في العصر العباسي، فبعد القضاء على الحكم الأموي عمد الخلفاء إلى إرساء قواعد الدولة العباسية الفتية فالتحين الأبواب على مصراعيها مخالفة لما كان في العهد الأموي، مما دفع بالشعراء إلى الالتزام والجري وراء كسب عطف وعطايا هذا الخليفة أو ذلك، الشيء الذي طبع أشعارهم بالذاتية دون الموضوعية مما أفقدها ميزتها وطابعها الرسالي والإنساني، زيادة على كون تراجع مصداقيتها، فانحرفت عن رسالتها الإنسانية المنتظرة، وفي مطلع القرن التاسع عشر تغيرت معطيات الحياة واشتد الصراع وتعددت الاتجاهات وبرزت إلى الوجود المذاهب الأدبية تأثرا بالأدب الغربي، وصارت الظروف أفضل، فهيأت للأديب الجو الأنسب لكي يختار، ضاربا بذلك التقاليد والأعراف الموروثة عن العصور السابقة ويبقى عند ضميره متخذا الالتزام بمعناه الحقيقي متحملا مسؤولياته وقوفا عند مبادئه تأييدا أو رفضا.

وعلى هذا الأساس ظهرت إشكالية الإلزام والالتزام، وتكاد تجمع جل الدراسات النقدية المعاصرة على أن هناك بونا شاسعا ما بين الإلزام والالتزام فالإلتزام في نظر البعض لا يكون على الإطلاق وليد التقليد أو الحرية المطلقة، بل الإلتزام هو أمل ينبع من ذاته الغنان اقتناعا لا تقليدا مشكلا بذلك موقفا حياتيا ينم عن شخصية الفرد، ووجه الخلاف يكمن في أن هناك من ربط الإلتزام بالصدق وآخر بالحرية.... على أن الصدق وحده هو الذي يضيف عليه الرونق والبهاء، ويشعر القارئ بالمتعة وبالتالي، والأديب الصادق هو الذي لا يقيم على الكتابة ما لم يفعل بظاهرة من ظواهر الحياة أو يتأثر لموقف من المواقف الحياتية المؤثرة، ثم يحاول بعدها محاكاتها فنيا في شكل انفعال وتفاعل جمالي

يكشف بموجبه عن اقتدار إبداعى متميز يشع صدقا وتفهما وانفعالا، فيؤثر في المتلقين ويجعلهم يشعرون بما يشعر به. (أما إذا جاول وصف انفعاله نون أن يتأثر هو نفسه، فإن أدبه يبدو مزيفا هشا لا يهز الوجدان في قليل أو كثير)¹

ويشير الناقد محمد مصايف إلى أن الأدب الملتزم هو الذي يعمد جاهدا إلى توجيه الجماهير وتبصيرهم بما لهم وما عليهم، معتبرا أن الأديب صاحب رسالة اجتماعية بقدر ما هي جمالية. ومما لا شك فيه أن العمل الأدبي الجيد الخالد - خلود الإنسان - هو الذي يفرض نفسه في كل مكان وزمان بجماليته وموضوعيته.

والإلزام غير الالتزام ، فالأول يخضع لمؤثر خارجي يعمد إلى تحقيق مصلحة ذاتية، فلا يعدو أن يكون الأديب فيه ذاتيا بحتا، أما الثاني فهو النابع عن إيمان بفكرة أو انفعال لظاهرة أو تأثر لموقف، فهو بذلك أدب يقف إلى جانب الإنسان لا فرداً منعزلاً. إنما يكون مجسدا للأمال الإنسانية وتنوب فيه الأنا لتحل محلها "نحن".

وبالتالي يكون الناص الجزائري قد سلك مواقف بطولية كرجل ميدان يشهد له التاريخ الإنساني حتى اليوم، وعلى وجه الخصوص أثناء الفترة الاستعمارية متحدداً بالضغوط وشنى أنواع العذاب والمضايقات التي تعرض لها الشعب آنذاك. وهذا نتيجة فعلية لممارسة حرية الاختيار أداء للرسالة كإنسان يعمل في حقل اجتماعي بأسلوب فني، فهي رسالة مشرفة لا تقل أهمية عن نظيراتها وخاصة بعد ما تحققت لديه اليقظة الفكرية والمواطنة العالية. فتطلع حينها إلى آفاق عليا بعيد الحرب العالمية الثانية وما أفرزته من أحداث وتحول في المواقف الاستعمارية خاصة، فأصبح شغله الشاغل - آنذاك - استرجاع السيادة الوطنية المتمثلة في حرية بلاده وكرامة شعبه، وهي مسؤولية اعترضتها عقبات وصعوبات وتضحيات جسام، ثم بعد ذلك المساهمة في مرحلة البناء والتشييد لجزائر حرة ومستقلة، وعليه سخر الجزائري في أية وضعية كان كل ما كان بحوزته من أجل هذا المبدأ، فكان أن عمد الشاعر الجزائري إلى التحضير للثورة المسلحة كاشفا النقاب عند التوجهات الاستعمارية الجديدة، فاضحا بذلك كل النوايا الاستيطانية المبيتة على المستويين الداخلي والخارجي، عاملا على شحن الجماهير بروح اليقظة والتنبيه لمخاطر المستعمر، دعوة منه إلى الثورة وتنظيم الصفوف أكثر، من خلال اعتماد سياسة التنديد - عبر النصوص الشعرية خاصة - بالممارسات الاستعمارية الإجرامية في حق شعبه الأعزل وما ينجر عنها من تدهور في المناحي الاجتماعية، الاقتصادية والنفسية على وجه التحديد، مما يحتم على كل جزائري حر التضحية والنود عن الوطن والمواطن طردا للمستعمر الظالم، فكان أن ظهر في الساحة الأدبية شعراء كثر أظهروا شعرية ومواطنة عالية مثلوا الشعر الجزائري

عبر موضوعات وأغراض شعرية متفردة، فكان لتلك الأشعار وقعها الجمالي والنفسي على المستويين الشعبي والرسمي في الداخل والخارج.

1- الالتزام والقضايا الدينية:

1-1: احتفاء الشاعر الجزائري بالمناسبات الدينية :

عقب احتفاء المستعمر الفرنسي بعيده المئوي لاحتلال الجزائر، تصعدت العمليات العسكرية وزاد الغليان الشعبي، فظهرت تنظيمات وتشكيلات سياسية جديدة تشع عدا للاستعمار، تنظيما للصفوف واسترجاعا لعناصر القوة قصد التأثير على المستعمر وخطط أوراقه، فكان المولود الجديد آنذاك هو تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، متخذة الدين الإسلامي ركيزة أساسية مبدية مواقف رسمية من المستعمر مطالبة إياه بالاستقلال باعتباره حقا مشروعاً لكل أمة من الأمم، وقوام هذا التوجه السياسي هو التأكيد بشتى الوسائل والطرق على الشخصية الجزائرية باعتبارها شخصية عربية إسلامية لها من المقومات الأساسية ما يجعلها قسمة بالنود عن ذلك ، فرغم محاربة الاستعمار لكل ما هو ديني من خلال متابعة رجال الدين ومحاولة القضاء على مختلف مراكز الإشعاع الديني، فكان أن شكلت كل تلك الممارسات والتحرشات هاجسا شاعريا لدى الناص الجزائري ليرفع صوته عاليا مؤكداً على أن لا ينيل للشعب الجزائري عن الدين الإسلامي مهما كانت التضحيات.

وهكذا كان الشاعر حاضرا رغم قلة الإمكانات والمضايقات الاستعمارية احتفاء بالمناسبات الدينية ، إذ نلفي الشيخ عبد الحميد بن بانيس - رغم قلة نتاجه الشعري - يلقي قصيدة بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف معبرا عن صدق إيمانه واعترازه بالإسلام والعروبة، حيث قال :

المجد لله ثم المجد للعرب	من أنجبوا لبني الإنسان خير نبي
وبذلوا العلم مجانا لطالبه	فقال رغباه ذو فقر ونو نسب
قومي هم وبنو الإنسان كلهم	عشيرتي، وهدي الإسلام مطلبتي
أدعو إلى الله لا أدعو إلى أحد	وفي رضى الله ما نرجوا من الرغب ²

فإذا تأملنا هذه الأبيات ألفيناها تعكس لنا بحق توجه الشاعر السليم النابع من إيمانه الصادق ومواطنته الحقة، معتمدا النسق الشعري القديم لتبليغ أفكاره، فالأفكار مستساغة والمعاني واضحة معبرة، أما الوزن فقد ورد خفيفا ضمن الشائع المتداول، وبالتالي جاء الأسلوب أكثر ملاءمة للمتلقين وتأثيرا في الناس، نظرا لقوة روحه واستقامة سلوكه وصدق عاطفته ووضوح أفكاره.

إلى جانب العلامة ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نجد الشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة هو الآخر لا يفوت الفرصة على نفسه محتفيا بذكرى المولد النبوي الشريف ضمن حفل أقامته جمعية الشبيبة الإسلامية بنادي الترقى، حيث قال:

ألا تعلم أيها الهادي	بذكرى مولد الهادي
نحيي خير مولى	بدا في خير مي
نحيي المصطفى المختار	ر آباء لأج
نحيي شرعه الوضار	ح مثل الشمس الزاد
نحيي منه أخلاقا	زكيات كـأوراد ³

كان محمد العيد هو الآخر من محبزي الوزن الخفيف، مراعاة للمستوى الثقافي العام للشعب الجزائري إبان العهد الاستعماري، فرغم المضايقات إلا أنه لم يتخل عن تراثه الديني ولم يتجاوز مناسباته العامة، كما أنه لم يخرج أيضا عن قالب الشعري القديم رغم أن كثيرا من الأشعار كان طابعها الارتجال لمناسبة أو أخرى، ناهيك عن الظروف النفسية والاجتماعية الصعبة التي كان يحياها الشاعر رفقة شعبه، متخذًا بذلك لغة سهلة وأفكارًا بسيطة نابعة من ثقافته الدينية الخالصة.

2-1 : محاربة الإنماج :

لقد حاولت السلطات الاستعمارية - منذ مجيئها إلى الجزائر - القضاء على كل ما هو ديني، وإحلال المسيحية مكان الإسلام، لكنها لم تصل إلى أهدافها إلى غاية خروجها من الجزائر منهزمة، وعلى هذا الأساس سخر الشعراء أفكارهم وجانت قرائحهم بما يناسب المرحلة، فأبدوا عداوتهم للمستعمر في سياق سياسة أصيلة معبرة عن إرادة هذا الشعب المسلم، محاربة بذلك سياسة الإنماج التي طالما حاول المستعمر ممارستها وترشيدها، فكان للمصلح الديني والاجتماعي موقف في هذا السياق، حيث (حارب الشيخ عبد الحميد بن باديس فكرة الإنماج ذاهبا إلى القول بأن الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها. وفي عنصرها، وفي دينها لا تريد أن تنمج، ولها وطن محدد هو الجزائر)⁴

وفي هذا الإطار قال الشاعر ابن باديس :

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
يا نشء أنت رجـاونا	وبك الصباح قد اقترب (5)

إنها مواجهة صارخة وصريحة، وتعبير صادق نابع من إيمان الشاعر العميق وتعبير كاف عن
إرادة الأمة الجزائرية المسلمة، والتي ترفض سياسة الإدماج المعلن عنها، لأن من مقومات هذا الشعب
الإسلام ولا يريد به بديلا.

فالتزام ابن باديس جعله ينهج سياسة أصيلة تتخذ سلاحا قويا للمحافظة على أصالة الشعب
الجزائري، فهذه هي روح ابن باديس السياسية المناهضة لكل مقترح إيماجي، وهذا هو الموقف
الرسمي لكل جزائري آمن بهذا الدين وأحب هذا الوطن جاعلا مصلحة الوطن فوق كل الاعتبارات.
وبالنظر إلى ما سبق نشير إلى أن الشاعر الجزائري رغم مضايقة الاستعمار له في ظل
معطيات ثقافية منعومة، فقد ظل ملتزما بقضاياه الدينية خاصة، لأنها المحرك الوحيد لتحقيق المبتغى
الوطني، فراح يتتبع كل المناسبات التي تربطه بالإسلام أصلا وفصلا، من قوة إيمانه وصدق شعوره
وخصاله العالية، وأمله في أن الإسلام دين يحق الحق مهما كانت الظروف.

2- الالتزام والقضايا الاجتماعية:

إن سياسة فرنسا الاستعمارية جعلتها تتناقض مع شعارها الثلاثي [الإخاء - العدالة -
المساواة] كما ألحقت أبشع الجرائم - التي مارسها الدول الاستعمارية - بالشعب الجزائري فتدهورت
أحواله السياسية والاجتماعية خاصة، مما نجم عنه مآسي نفسية اجتماعية لا حصر لها في ظل سياسة
استعمارية فرضت عليه في وطنه، فراح الشعب الجزائري آنذاك يعبر عن لوعة الأسى والألم التي
عصرت قلبه وأثخنته جراحا عميقة صعب علاجها حتى لدى الأخصائيين، كما ألحق الضرر بكافة
الفئات الاجتماعية، خصوصا غير القادرة على التحمل كالشيوخ والأطفال وحتى النساء، مما يعكس لا
إنسانية المستعمر وعدم قدرته على مواجهة هذا الشعب الذي أنبأه أنه يرفضه قلبا وقلبا، وهما
الشاعر صالح خرفي يقول:

قف معي اليوم في الجزائر ، وأسبر	غور أحوالها بعين وأذن
تجد الطفل في الأزقة يلهمو	والفتى يشرب الخمر ويزني
تجد الطفلة اليتيمة تشقى	تحت خدر تنوء أو تحسنت خدن
أو لدى (الببيض) نصروها وقالوا	أركتها يد المبيح بحضن ⁶

لقد كانت الحركة التبشيرية نشطة في العهد الاستعماري، حيث قدمت كافة الإغراءات للشباب
الجزائري لكي يتخلى عن حب وطنه والتعلق بدينه، وهي سياسة كانت لها أولوية كبرى لدى
المستعمر، إذ سخرت لها إمكانات ضخمة مادية وبشرية معتبرة باعتبار أن الشباب يشكل مستقبل

فاهتمام الشاعر الجزائري في الفترة الاستعمارية لم ينسهِ التفكير في موضوع المرأة باعتبارها تشكل عنصرا مكملا وحيويا للرجل، فهي أي المرأة لم تسلم من الآثار السلبية لسياسة الاستعمار التمييزية، فاهتمام الشاعر الجزائري بالمرأة نابع من إحساسه الدفين بنورها الريادي إلى جانب الرجل خصوصا المجاهدة، كل ذلك صونا لكرامتها ومحافظة على شعورها وكرامتها التي أكنت عليها الشريعة الإسلامية في مختلف تشريعاتها ونصوصها، كما حرص الشعراء على إخراجها من الظروف الصعبة التي ألمت بها والمآرق التي حلت بها التزاما منهم بمقامها، لأن مجرد التفریط فيها يعد إهمالا للمجتمع في حاضره وماضيه وحتى في مستقبله، وفي هذا السياق نلقي الشاعر محمد العيد آل خليفة، يقول:

علموا المرأة الحقائق في الديــــــــــــن
علموها كيف للرعاية للطفـــــــــــــة
علموها كيف التودد للزواج
عصمة المرأة احتجاب وصــــــــــــون

ن ، فقد طوحت بها الأوهــــــــام
ل ، وكيف الناقين والإلهــــــــام؟
وكيف التقدير والإعظــــــــام ؟
 وإيلاء ، وعفة و احـــــــــــسان)7

ولما كانت الرياح الغربية - وخاصة الفرنسية منها - تعصف بالمرأة سخر الشعراء والدعاة ورجال الإصلاح أفكارهم وجهودهم لموضوع المرأة إصلاحاً وتربية، حماية لها مما يمكن أن يحصل لها باعتبارها مستهدفة وفي ذات الوقت باعتبارها تشكل مؤسسة اجتماعية معنية بالتربية والخدمات الاجتماعية خصوصاً البيئية منها، فالتعبير كان جميلاً والهدف كان أجمل منه، فالأفكار جاءت سهلة واضحة محققة للهدف، فلم تخرج بذلك عن القالب الشعري القديم، كما أن التعابير جاءت منتقاة من القاموس العربي المتداول، وبالتالي فقد دعا الشاعر كل النساء إلى ضرورة النهوض بالمسؤوليات المضطلة في إطار إسلامي صحيح، فو متأثر بالإسلام وليس تجلوبا مع أية دعوة غربية محاولة منه للمساهمة في تحريرها ومساعدتها، ودلّما مع الشاعر نفسه، والتزاماً منه بتغيير وضعيتها المرأة الجزائرية نحو الأفضل لتؤدي رسالتها كاملة.

سون سبر الحرائر	خلف ركب العشائر	يا نساء الجزائر
سرن نحو الذي دعا	للمعالي فاسمعا	يا نساء الجزائر
قرن في البيت ، إنه	يقتضي فئة	يا نساء الجزائر
كن في البيت للرجال	نسوة فذة المثل	يا نساء الجزائر ⁸

نعم يريد لها حرية في إطار الحدود الشرعية لا الأفكار الغربية، ويريد لها أن تكون المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذى في الرعاية الأسرية وترتيب شؤون البيت وخدمة الزوج وصون كرامة الأسرة وأداء الواجب الاجتماعي، وما يدل على عروبة وإسلام الشاعر الجزائري هو التزامه الأكبر بالقرآن التي هي الوسيلة الإبداعية الوحيدة التي يتقاهم بها أفراد المجتمع في الإطارين الرسمي والشعبي كبديل للغة المستعمر التي طالما حاول فرضها مسهلا تعلمها، مثل ما فرض القوة في تعلمها والتعامل بها والترغيب في كل ما غربي، وفي هذا الاتجاه نجد الشاعر محمد العيد آل خليفة، يقول:

يا رجاء الضاد ، يا نخر البلاد	لك في كل حشا نبع وداد
من عتاد فلنكن خير عتاد	شعبك الموثق لم يبق له
كل يوم منه ألوان اضطره	لج الاستعمار في طغيانه
لغة الإعجاز سبحت بكساد	لغة الضاد التي ما برحت
إن تحصلها ، تكل كل مراد ⁹	هذه غايتك المثل التي

إذا كان المستعمر يعتقد أنه كان ذكيا - لما حاول القضاء على كل ما هو ديني، وإحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية لإبعاد هذا الشعب عن ماضيه وأصالته - فإن الشاعر الجزائري كان أنكى منه، إذ إنه أكد مرارا أنه مستعد للتصدي لكل ما هو تغريبي، ولا يريد بديلا عن اللغة العربية كلفة للقرآن مهما كانت الإغراءات وحجم الاضطهادات.

وما يعكس التزام الشاعر الجزائري في هذا الظرف وشعوره بالمسؤولية المنوطة به، هو التزامه بكامل شرايط المجتمع طالما ركز عليها المستعمر وقدم لها كل الإغراءات وسخرها لخدمته، ونخص بالذكر شريحة الشباب، وشعورا منه بوزن تلك الفئة في المجتمع، فقد دعاها إلى الثورة والتباعد والتباعد بكل ما هو وطني، وفي هذا السياق، يقول شاعر الثورة التحريرية "مفدي زكريا" في قصيدة بعنوان : "أنكروا الثورة في أفساحكم":

يا شباب اليوم أبطال الغد	صعدا نحو العلا والسود
أنتم أركان صرح الأبد	أنتم اليوم رجاء ، وغدا
واصنعوا بالفكر مجد البلاد	واطلبوا العلم ، تعيشوا سادة
ما عسى تجدي جهود المفرد	واجتمعوا للرأي ، إذا أقمتم
إن ساحات الوغى كالمعهد	فانكروا الثورة في أفساحكم
وارفعوا الراية فيه بيهد ¹⁰	فاكتبوا العزة فيه بيهد

قصيدة ارتجلها الشاعر في مهرجان شباب الجزائر سنة 1960، عكس من خلالها رؤاه الشعرية فهي تظفر إبداعية ووطنية ضمن سياق استشرافي لجزائر مستقلة، وهذا التزاما منه من أن

عزة هذا الشعب تكمن في سيادته وفي مساهمة كافة أفرادها في البناء والتشييد، فعلا إنها كلمة أو بالأحرى رسالة توجيحية من الشاعر حتى يكون في مستوى ثقة شعبه فيه وبه معا، وبالفعل، وعقب سنتين من ذلك التاريخ، تحصلت الجزائر على استقلالها وكانت في أمس الحاجة إلى سواعد كافة أبنائها الخالص، كما كان المجاهد هو الآخر وفيما مناضلا رافضا السياسة الاستعمارية الغاشمة الظالمة، والتي لا تريد خيرا لهذا البلد.

وهاهو الناصر محمد العيد آل خليفة يدعو من جهته بنت الجزائر - المخلصة لشعبها، الوفية لوطنها - لأن تلعب دورها كاملا مساهمة في الجهاد معبرة عن مدى ثورتها على المستعمر، استجابة لنداء الثورة، حيث يقول في قصيدة له تحت عنوان "ثورة بنت الجزائر":

سأهني في الجهاد جند الجهاد	وأعدي للفدى لنصر البلاد
يا فتاة البلاد شعبك نأدي	فأستجيب بعزمه للمنادي
فلنثر ثورة على الظلم كبرى	ولنحطم سلاسل الأغلال
أنا ثورية سلاما وحربا	فكرتي عنتي ووحي زادي ¹¹

إن التزام الشاعر الجزائري جعله يذكر الفتاة الجزائرية لكي يكون دورها تكميليا إلى جانب الآخرين عن طريق الثورة على الظلم المستبد، ورفض الاستسلام له، مع ضرورة التسلح بسلاح العلم والمعرفة.

ومن المأساة الاجتماعية التي كابدها الشعب الجزائري جراء السياسة الاستعمارية، هي ذلك الجرح الدامي العميق الذي أصاب الشعب الجزائري لما خرج متظاهرا في مدن جزائرية عدة عقب انتصار الحلفاء، فلما منه من أن الحكومة الفرنسية ستقي بوعدها وتمنح الشعب حريته واستقلاله مقابل مشاركته معها ضد نول المحور في الحرب العالمية الثانية، لكن فرنسا خيبت آماله وقابلت ذلك "بجزاء سنمار" حيث بلغ عدد الضحايا خمسا وأربعين ألفا (45000) ناهيك عن الاعتقالات وأنواع التعذيب في مدن جزائرية منها (سطيف، قالمة، خراطة...) ومن ذلك التاريخ تغيرت النظرة وسحب كل مواطن جزائري الثقة من فرنسا وعزم على توحيد قواه من أجل إخراج المستعمر، لأن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، وبسبب ما ألم بالشعب من جراء الغدر الاستعماري، كان الجرح عميقا والمأساة كبيرة، فراح الشاعر يعبر عما أصابه وأصاب شعبه، التزاما منه بأداء الواجب الوطني ورسالة الفنان، وفي هذا الإطار نظم الشاعر محمد العيد آل خليفة قصيدة بمناسبة "حوادث 08 ماي 1945".

فتعبير الشاعر عن هذه المأساة الاجتماعية كان نابعا من رسالة أداها وقريحة أفرغها، مجسدا ذلك في صدى وشعور متكاملين باعتباره ينتمي إلى هذا الشعب وما أصيبهما واحد أيضا، والحديث عن انعكاس الغدر الاستعماري الفرنسي لم يتفرد به الشعر الرسمي، بل كان هناك حضور أيضا

للشعر الشعبي تعبيراً على أن هذا النسق الشعري هو الآخر يعمل على بقضة الشعب وتحرية المستعمر وكشف حقيقته وأطماعه، وضمن هذا السياق نظمت قصيدة بعنوان "فرنسا الغدرة"

أضربنا بالطير	أفرنسا الغدرة
لحنا أمعنا ، ربي	لا أخوية لابن صبي
خرجتينا من البلاصة	فرنسا يا الغدرة
وابن بولعيد حاكم لبلاصة ¹²	لعرّب عملوا البياسة

فعلى الرغم من افتقار الشاعر الشعبي إلى كثير من الإجراءات الفنية، إلا أنه استطاع - بمستواه وحسه الوطني - التعبير عن الإرادة الشعبية كاشفاً نوايا الاستعمار الخبيثة. واعتباراً من أن المجالات الاجتماعية واسعة والمآسي التي تعرض لها الشعب في تلك الفترة الحاسمة أكثر من أن تعد أو تحصى، اكتفينا برصد عينات من القضايا الكبرى التي تعكس تلك الظروف القاسية التي مر بها المواطن آنذاك.

3- الالتزام والقضايا السياسية :

مجالات السياسة رحة ومتشعبة، منها ما يطال القضايا الوطنية الداخلية منها وحتى الخارجية، ومنها ما يتصل بالقضايا القومية المصرية، وفيها ما يتعلق بالملفات الدولية الراهنة.

3-1- الشاعر الجزائري والوطنيت :

إنما ينسب للوطن أفراد الذين تربطهم به ذكريات الماضي وتجليات الحاضر وآفاق المستقبل، والانتساب للوطن يوجب العلم بتاريخه والقيام بواجباته من نهضة علمية، إقتصادية وعمرانية، إلى جانب المحافظة على سمعته وسيادته.

فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا يقدر سمعة قومه والشاعر الجزائري كان ولا يزال في مستوى الحدث حيث امتزج بالمقاومة الشعبية وشارك بفعالية في مرحلة الكفاح المسلح جامعاً ما بين رسالة الفنان والمجاهد، فكان ممن خططوا للثورة ومهدوا لها، فهو بالتالي ولیدها وهي بدورها مصدر إلهامه.

وعلى هذا الأساس نلقي تلك الفترة من تاريخ الجزائر حافلة بالتضحيات الجسام، وبذلك جادت بها قرائح الشعراء ابتهاجاً بالنصر وصنعاً للحدث، وتحميساً للثوار وغيظاً للكفار، فهذه الشاعر الشعبي أحمد ولد البشير، يقول :

سالم على ناس الجبهة أقرب وأبعد	أولاد الجزائر واحد لا أخيه
سالم على الناس المخلصين لجواد	أدمرين عدوهم ربا وانكساره فيه
أكلهم طيب إيفاجي عليك الأكساد	كالعسل الصافي طيب المريض بيبه ¹³

وهاهو شاعر شعبي آخر يبدي تألما لما أصاب بلاده، مستهينا بالموت في حنتها، فلا بد أن تكون في سبيل تحرير الوطن دون الاستكانة للمستعمر، لأن يكون ذلك عبرة للأجيال وشهادة في حق التاريخ، زفي ذلك، يقول الشاعر: قزول الميلود:

ربي على وطننا نــــــادي	يزيان ، يتطهر من الكفار
والموت غير موت واحد	وعلاش وطننا مستعمر؟
تاريخنا أساس لابســــد	لأولادنا يبقى مسطــــر
الوطن جميع من يتعــــدا	في الحرب لازم الا يخسر ¹⁴

فالشاعر الجزائري إيان هذه الفترة كان يؤمن بالثلاثي المتمثل في الإيمان بالله وحب الوطن وتحقيق النصر، فرغم افتقاره لوسائل تعبيرية راقية إلا أنه سجل مواقف بطولية يشهد لها التاريخ والنضال السياسي الوطني والقومي وحتى الإنساني.

كما كان للشاعر الشعبي هو الآخر صريح الآلام والأحزان نظرا لما أصاب الجزائر من تسلط استعماري غاشم وكوارث طبيعية لا عد لها ألحقت أضرارا جسيمة بالبلاد والعباد، ولكن فوق هذا وذاك كان إيمانه قويا وحبه لوطنه أقوى.

إن أكبر شاعر عرفته تلك الفترة الزمنية الاستعمارية وارتبط اسمه بها، كان الشاعر الملحمي مفدي زكريا، شاعر الثورة التحريرية الكبرى، فهي مصدر إلهامه حيث أدخل السجن خمس مرات بسبب مواقفه النضالية المشهورة، فكان بمثابة القلب النابض للثورة والثوار معا، والمحرك للإرادة الشعبية ضمن أشعاره التي تبقى خالدة ما بقي التاريخ.

3-2- من رموز الثورة :

فهو بلا شك أول شاعر جزائري أوتي من الاقتدار الشعري ما مكنه من وضع رموز الثورة ووضع أناشيد وطنية خالصة، لكافة القوات الحية في البلاد رغم المضايقات الاستعمارية المتكررة له، فيها هو يقنس للعمل والعامل معا في ظروف لا يجد فيها المواطن الجزائري عملا بالمفهوم الصحيح، إذ وضع نشيدا رسميا للاتحاد للعام للعمال الجزائريين سنة 1956، حيث قال:

نحن جند الاتحاد والعمل ننجز الأشغال لا نرضى بالكسل
نعقد العزم لتحقيق الأمل نرفع الراية مابين السدول
نفعل السواعد ، ... نتحمل الشدائد ، ... نبذل المقاصد ، ...
لا نكل ... لا نمسك ...¹⁵

حقا فإن العامل الجزائري يبذل كل مجهود من أجل الجزائر تحقيقا للنصر وحصولا للثروة
ونهوضا بالاقتصاد الوطني في ظل ظروف استعمارية متميزة، كما وضع النشيد للرسمي للثورة
التحريرية المباركة تبركا بها وتعبيرا عن منجزاتها، حيث أنشد قائلا:

قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات في الجبال الشامخات ، الشاهقات
نحن ثرنا ، فحياة أو ممات
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فأشهر ¹⁶

قالب شعري جديد أملا لمستقبل جديد لهذه الثورة المسلحة، إنه دفع جديد للمجاهد الجزائري،
وهو يتسلق الجبال ثورة على المستعمر في سبيل الحصول على حياة سعيدة له ولشعبه، أو الموت
شجدا للهيم.

وبما أن جيش جبهة التحرير الوطني هو القائد للعمليات العسكرية في شكل تنظيمات جماعية،
وفي جميع مناطق الوطن، فلم يفوت - مفدي زكريا - الفرصة على نفسه، إذ وضع نشيدا للجيش
بالعامية، وكان وقتها بسجن البروقية:

هـذي دمانا الغالية دفاعة
وعلى الجبال علامنا خفاعة
والجهاد أرواحنا سباعة
جيش التحرير احنا ماناش (فلاقة)¹⁷

فعلا لقد لبى المواطن الجزائري نداء الثورة والتحق بالجبال رغم بساطة التنظيم وقلة
الإمكانات، لكن الصفوف كانت موحدة، والجهود كانت مسخرة لاستقلال الجزائر، مما يدل على أن
"ابن تومرت" كان حريصا على مستقبل بلاده، محطما الرقم القياسي في حبه والاهتمام بشرائحه، في
ظل ظروف استعمارية ومضايقات لا متناهية، ولم ينس بدوره الطالب الجزائري، حيث وضع له

نشيدا بسمو به إلى طلب العلم، والذي به تكسر القيود والأغلال، وتشيد الحضارات وتثور العقليات
ونقام المؤسسات.

وقد قال في نشيد اتحاد الطلاب الجزائريين، رغم قلة عددهم آنذاك:

نحن طلاب الجزائر
نحن للمجد بنينا
نحن أمال الجزائر
في الليالي الحالكات
كم عرفنا في صاها ... واحترقنا في حماها ... وعبقنا في سماها
نحن طلاب الجزائر
نحن للمجد بنينا¹⁸

نعم إنه مجد لا يتأتى إلا بالعلم النافع والاجتهاد في مراكز الإشعاع العلمي أملا في بناء
الجزائر، ورصدا لمعالمها الحضارية استكمالا لدور المجاهدين الأحرار والثوار الكبار.
ومما يعكس امتزاج الشاعر مفدي زكريا بالثورة التحريرية هو رصده لانتصاراتها وتأريخه
لمساراتها ومسيرتها، فهي من سجن البروقية ينظم قصيدة بعنوان "وقال الله":

دعا التاريخ ليالك فاستجابا
تبارك ليالك ، الميمون نجما
وهزت .. ثورة التحرير شعبا
ولعلم ، من (شلمع) زويبان فأنطق فوق (جرجرة) الحجابا¹⁹
فالملاحظ على أشعار مفدي زكريا أنها توظف الثورة بشكل أو بآخر منتقيا ألفاظا دلالية لمقامها
وعظيم سلطانها، فلم يكن بالمرّة مبالغا - كما يتهمه البعض - بقدر ما كانت توظيفاً ته السياقية مميزة
ومفيدة صدقا وتعبيرا حبا لوطنه وكشفا عن شاعريته.
وللشاعر أناشيد وطنية لا يتسع المقام لسردها وأكثرها وارد في ديوانه "اللهب المقدس" على
وجه التحديد.

ونظرا لتحالف القوات الفرنسية مع الدول الغربية، فإن القضية الجزائرية لقيت معارضة كبيرة
من لدن الهيئة الأممية بفعل الضغوط المتنوعة والتكتلات الدولية القائمة، وقد سجل التاريخ تخايل هذه
المؤسسة الدولية في حق قضية مصيرية شرعية عادلة، فكان أن نظم الشاعر قصيدة مطولة، تبقى ما
بقي الإنسان، وتكون شاهدا حيا على تجاوب الهيئة الأممية مع الأطراف المعادية لكل ما هو مشروع

كالقضية الجزائرية باسم للشرعية الدولية المزعومة وفقا للمقاس الغربي، فكان عنوان النص الشعري "وتعطلت لغة الكلام"

نطق الرصاص فما يباح كلام	وجرى القصاص فما يباح كلام
وقضى الزمان فلا مرد لحكمه	وجرى القضاء، وتمت الأحكام
يا ثورة التحرير، أنت رسالتي	أزلية، إعجازها، الإلهام
يا معشر المستعمرين، تربصوا	ودعوا المطامع، فالسحاب جهام ²⁰

نظمه بسجن "بربروس" سنة 1957 عند اختلاف المنظمة الدولية في قضية الجزائر في الثورة الثالثة عشرة.

إن الاستعمار - في نظر مفدي زكريا - لا يعترف إلا بلغة القوة والرصاص، لكن للملاحظ أيضا على أشعار مفدي زكريا إلى جانب وضوح الفكرة وبنية التعبير، لأنها تعكس إيمانه الكامل بالقدرة الإلهية والبلاء الرباني المتمثل في استعمار فرنسا للجزائر، فلا مرد لقضائه، وثورة التحرير رسالة يؤديها جيل الثورة كواجب.

ونظرا لكثرة الضحايا وعدد الشهداء الذين سقطوا في ميدان الشرف والشهادة، قام الشاعر بدوره هو الآخر واضعا نشيدا للشهداء متحدنا باسمهم باعتباره لا يقل ثورية عنهم، وتلك الأبيات الشعرية نظمها أيضا بسجن "بربروس" سنة 1937، فقال :

أعصفي يا رياح واقصفي يا رعدود
واثخني يا جراح واحلقي يا قيودود
نحن قوم أبلاء
ليس فينا جبان
قد سئمنا الحياة
في الشفاء الهوان
لا نمل الكفاح لا نمل الجهاد
في سبيل البلاد²¹

فالشهيد يريد رياح للثورة أن تقصف بالمستعمر وتجرفه وتثخنه جراحا لا تهدأ. والشيء الملاحظ أيضا أن مفدي زكريا ينتخب تراكيب لغوية هائلة ومناسبة لمقام الحدث وتتل في الوقت ذاته على قدرته التعبيرية وثقافته الواسعة وبعد نظره وتمرسه بالسياسة، فالمواطن الجزائري يعيش من أجل الفكرة وعلى أساس المبدأ، ألا وهو الجهاد في سبيل الله والوطن مهما كانت الظروف والتضحيات والعقبات.

4- الالتزام والقضايا القومية :

إن انتماء الجزائري على هذه الرقعة الجغرافية المترامية الأطراف المسماة " الوطن العربي" بحكم مسائل مشتركة توحد تلك الشعوب في آمالها وآلامها، كالتاريخ والدين الإسلامي واللغة العربية، كل هذه المعطيات وضعها الشاعر الجزائري في اعتباره، فلم يبق منغلقا على نفسه في حدود جغرافية بلده، بل كان واسع الأفق، كما التزم بقضايا وطنه وشعبه أيضا، زيادة على كونه كان متواجدا مع الشعوب العربية على أساس أن الامتحان كان تقريبا واحدا، وقد تعرضت كثير من البلدان العربية إلى موجة استعمار غربية، كما أنه أي الشاعر الجزائري كان وطنيا متفتحاً، لكونه تتبع كل مجريات الحياة اليومية للمواطن الجزائري، زيادة على تتبعه لما كان يجري من أحداث في الوطن العربي مبديا الحسرة والأسى، ومن هؤلاء الشعراء الذين جسدوا فعلا هذه المواقف البطولية للمواطن الجزائري هو الشاعر "ابن تومرت" ولعل القضية التي حركت قرائح الشعراء وأقلام الكتاب والصحفيين حتى اليوم، هي القضية الجوهر للأمة العربية، ألا وهي القضية الفلسطينية، لأن تقسيمها وفقا لوعد بلفور 1948 شكل نكبة حقيقية للشعب الفلسطيني بل للشعوب العربية والإسلامية، فبعد التقسيم جادت قرائح الشعراء تعبيراً وتصويراً ومنهم مفدي زكريا، حيث قال:

فلسطين ... يا مهبط الأنبيأ ويا قبلة العرب الثانيــــــــــــــــة
ويا حجة الله في أرضــــــــــــــــه ويا ، هبة الأزل السامية
ويا قديسا ، باعــــــــــــــــه أم كما ، باع جنته العالــــــــــــــــية
فلسطين ... والعرب في سكرة قد انحدروا بك للهاويــــــــــــــــة²²

يظهر أن مفدي زكريا قد تفاعل هو الآخر مع القضية الفلسطينية داعيا كل عربي حر إلى الانتفاضة وتوحيد الصف وإعلان الجهاد لتحرير فلسطين، وتجاوز الخلافات العربية العربية، والتعامل العقلاني مع الوضع الراهن، باعتبارها قضية مصيرية متعددة المشارب قوميا إسلاميا وحتى إنسانيا.

كما شارك الشاعر الشعبيين المغربي والتونسي بمناسبة حصولهما على الحرية والاستقلال، كما قاسم الشعب المصري حزنه عقب الاعتداء الثلاثي على هذا البلد العربي لشقيق العام 1956، بقصيدة تحت عنوان " قل يا جمال" وكانت هذه الأخيرة من بين ما زج به في السجن، كما بارك الثورة اللبنانية المظفرة سنة 1958 ضمن قصيدته المشهورة بـ " معجزة الصنائع".
والحديث عن الهموم العربية طويل وعميق عمق الجرح، والكلام أيضا عن الإنجازات والانتصارات العربية أطول ويضيق المقام للحد والإحصاء.

الهوامش والمراجع

- 1- د. عزيزة مريدن : القصة والرواية ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 / 1980 ، ص40.
- 2- د. عامر طالبي : عبد الحميد بن باديس ، حياته وأثره ، ج3 ، ص573.
- 3- محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص75.
- 4- د. عامر طالبي : عبد الحميد بن باديس ، حياته وأثره ، ج3 ، ص390.
- 5- عبد الحميد بن باديس : الديوان ، ص111.
- 6- د. صالح خرفي : الشعر الجزائري ، ص148.
- 7- محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص175.
- 8- محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص176.
- 9- د. صالح خرفي : الشعر الجزائري ، ص154.
- 10- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص196 ، 197.
- 11- محمد العيد آل خليفة : الديوان ، ص430 ، 431.
- 12- العربي دحو : الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى ، ص124.
- 13- العربي دحو : الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى ، ص126 ، 127.
- 14- العربي دحو : الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى ، ص142 ، 143.
- 15- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص160.
- 16- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص71.
- 17- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص79.
- 18- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص97.
- 19- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص30 ، 31.
- 20- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص42 ، 43.
- 21- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص84.
- 22- مفدي زكريا : اللهيب المقدس ، ص336 ، 337.